عبد الرحمن الأخضري المجدد البلاغي – دراسة مقارنة -

د.عمر بوقمرة، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الملخص:

عبد الرحمن الأخضري واحد من أبرز علماء الجزائر في القرن العاشر الهجري؛ الذين أثروا البحث البلاغي بمؤلفين جليلين هما: الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، وشرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون. وقد اقتفى في ترتيب مباحث البلاغة في منظومته أثر القزويني في كتابه التلخيص، وهذا البحث يجتهد في البحث عن إضافات الأخضري على القزويني من خلال هذين الكتابين، لنجيب عن سؤال مهم جوابه هدف ونتيجة البحث، وهو: هل الأخضري مقلد أم مجدد؟ وقد سلكت في ذلك المنهج المقارن لمناسبته لطبيعة البحث.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التجديد، التقليد، الإضافة،التيسير.

Abstract:

Al-Akhdariis one of the most famous savantof Algeria in the tenth century.He had enrichedtherhetorical search with two great books are: aldjawharalmaknoun fithalathatifonoun , and charhoaldjawharalmaknoun fi thalathatifonoun. He has followed in the order of rhetoric topics alkaswini in his book attalkhiss.This research is concerned to study and count additions Al-Akhdarithrough these two books, to answer an important question; its answer is the object and the result of the search, which is: Is Al-Akhdariimitator or renovator? This research adopts a comparative approach of its suitabilityto the research nature.

Keywords:rhetoric,renovation,imitation,addition,simplification.

مقدمة:

عبد الرحمن الأخضري واحد من أبرز علماء الجزائر في القرن العاشر الهجري(920هـ - 982هـ)؛ الذين طبعوا البحث البلاغي بطابعهم، وأثروه بمؤلفاتهم، فقد ترك الرجل مؤلفين جليلين في علم البلاغة هما:

1- الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون: وهو عبارة عن منظومة بلاغية من بحر الرجز، تقع في مائتين وواحد وتسعين بيتا(291)؛ أوجز فيه مسائل علم البلاغة كلها مقتفيا فيه ترتيب القزويني في التلخيص حيث يقول في مطلعه: **ملتقطا من دُرِ التلخيصِ جواهراً بديعة التلـخيصِ**

سلكتُ ما أبدى من الترتيبِ وما ألْوتُ الجهدَ في التهـذيـب

2- شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون: وهو عبارة عن شرح للأول.وقد عكف طلبة العلم على هذا الكتاب في المغرب والمشرق دراسة وقراءة وحفظا؛ ويكفي دلالة على ذلك أنه اعتُمِدَ في جامع الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة وجامع القرويين بتونس، وفي شأن هذا المَؤلف يرى المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله بأنه فاق فيه الأخضري تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني؛ وقد استفزني الحكم الصادر من المؤرخ سعد الله، وثَوَّر بداخلي جملة من الأسئلة أولها وأكبرها: **ما الذي ساقه لإصدار مثل هذا الحكم (القاسي و الجهوي في نظر بعض المشارقة)؟وما هي المرتكزات المعرفية والمنهجيه التي توكأ عليها في ذلك؟** ولا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بفحصالمدونة التالية من الأسئلة.

فهل تأثر الأخضري بمنهج القزويني في كتابه التلخيص فاقتفى سبيله في ترتيب موضوعات منظومته البلاغية وشرحها؟ وهل ذلك يسوغ لنا الحكم عليه بالتقليد؟ وهل التأثر يعني بالضرورة التطابق مع الآخر؟ وهل أعاد الأخضري إنتاج المفاهيم الأصلية وشروحها وأمثلتها كما وردت عند القزويني؟أم إنه كان قارئا مبدعا استطاع أن يتفاعل مع عمل القزويني وينتجه في صورة أخرى فاقت النص الأصلي كما زعم أبو القاسم سعد الله، ما يؤهله لنيل شرف لقب المجدد؟

هي جملة من الأسئلة تسلط الضوء على مسائل الاجتهاد والخلاف بين علمين من أعلام البلاغة العربية أحدهما بالمغرب الأوسط (الجزائر)والآخر بالمشرق.

مفهوم التجديد:

لا يمكن للباحث اللبيب أن يعالج موضوعا كهذا دون التعريج على مصطلح قريب منه، وهو مصطلح التجديد، الذي بدوره يثير فينا التساؤل التالي: هل كان الأخضري مجددا أم للقزويني مقلدا؟ وحتما عنوان البحث يوحي بالأول، فمصطلح "الإضافة" يدل على أن هناك لبنات في صرح البلاغة قد أضيفت وأخرى قد غُيِرَّت، وتلك دعوى نسعى لإقامة البينة عليها وإلا فنحن أدعياء.وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:

ماالتجديد؟

التجديد لغة:جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي تحت مادة (ج د د) ما يلي:

+الجِدَّة تقتضي البِلى، يقال: شيء جديد والجمع أجِدَّه وجُدُد وجُمَد.

- وقال أبو علي وغيره: جدّ الثوب والشيء يجد – بالكسر- صار جديدا، وهو نقيض الخَلَق وأصل ذلك كله القطع.

-وثوب جديد: جُمَّ حديثا أي قطع.

- والجِدَّة مصدر الجديد وأَجَدَّه واستجدَّه أي صيّره جديدا"[1].

وجاء في مختار الصحاح: جدَّ الشيء يُجِدُّ جدة (بكسر الجيم فيهما)، صار جديدا، وهو نقيض الخَلَق"[2].

فالتجديد في اللغة هو بعث الشيء وتحديثه وجعله جديدا، وهو نقيض البِلى والقدم والخَلَق.

التجديد اصطلاحا:معنى التجديد اصطلاحا هو عينه المعنى اللغوي مشربا بما تقتضيه طبيعة الإضافة من مدلول خاص ومعنى ضيق، والحقيقة أنني لم أعثر على مفهوم محدد لهذا المصطلح عند البلاغيين الجدد، وذلك راجع في تقديرنا لأمرين اثنين هما: بداهة المعنى، وتناثر

البحوث في هذا الاتجاه وعدم نضجها لحد الساعة، ولكن لا بأس أن ننطلق من التجديد في مفهوم الشرع، ثم نحاول إسقاطه على البلاغة مع مراعاة ما ينبغي مراعاته من الفوارق، فقد ورد في السنة النبوية المطهرة عدة إشارات إلى أن الله سبحانه وتعالى سيحفظ هذا الدين وسيبقيه خالدا دهر الداهرين، وأبد الآبدين، وذلك ببعث علماء ربانيين بين الفترة والأخرى، ليجددوا ما اندرس من معالمه، وإحياء ما مات من سننه، إلا أن لفظ التجديد لم يرد إلا في حديث واحد صحيح رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود والحاكم، وهو قوله- صلى الله عليه وسلم- :" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"[3]. وقد فهم علماء الشريعة أن المراد بالتجديد هو إحياء ما اندرس من معالم السنن ونشرها بين الناس وحملهم على العمل بها، يقول المودودي:" مُجَدِّد: كل من أحيا معالم الدين بعد طُموسها وجدد حبله بعد انتقاضه"[4].

ويقول عبد الفتاح إبراهيم:" التجديد يعني:"العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس بما نُسوه ،وربط ما يجِدُّ في حياة الناس من الأمور بمنظور الدين لها لا بمنظارها إلى الدين "[5].

ويقول القرضاوي:إن التجديد لِشيء ما: هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وَهَى، وترميم ما بلِيَ، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى، فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء... ولا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم- وصحابته، ومن تبعهم بإحسان"[6].

فالتجديد إذن هو بعث وإحياء ما اندرس وانطمس من المعالم والسنن، وحث الناس وحملهم على تَمَثُلِّها في حياتهم، وبعبارة أخرى العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس بما

نسوه، وربط ما يِجدُّ في حياتهم من الأمور بمنظور الدين، إنَّه محاولة الرجوع إلى النموذج الأول حين نشأ و ظهر حتى يبدو على الرغم من رغم قدمه كأنه أمر جديد، وذلك بتقوية دعائمه، وترميم ما بلي ورتق ما انفتق، فالتجديد ليس معناه الثورة على القديم وتغيير طبيعته، أو استبداله بشيء آخر مستحدث، فهذا ليس من التجديد في شيء.

ولو حاولنا صياغة معنى اصطلاحي للتجديد في مجال البلاغة مسترشدين بما نقلناه آنفا عن علماء الشريعة لقلنا: **هو محاولة إحياء ما ا ندرس من العمل بقواعد البلاغة وتمثلها في حياة الناس على أوسع نطاق ممكن كما كانت عليه زمن الفصاحة، وذلك بمحاربة اللحن وتطهير ألسنة الناس منه.** فليس التجديد هو ترك القديم واستبداله بجديد يقوم مقامه، فليس ذلك بجديد ولا تطوير، بل هو استعاضة، وحتى المعنى اللغوي يَمُجُّ هذا المعنى، إذ التجديد يستلزم قديما يجري عليه التجديد والتطوير.

والملاحظ أن هذا التعريف المسبوك يقوم على أساسين اثنين هما:

1- إحياء ما اندرس من العمل بقواعد البلاغة: وأظن أن الفرق واضح بين إحياء ما اندرس من العمل بقواعد البلاغة وبين إحياء قواعد البلاغة، فقواعد البلاغة لازالت محفوظة في كتب البلاغة وغيرها، وهذا أمر واضح لا إشكال فيه، ولكن الإشكال في مراعاة هذه القواعد في مخاطباتنا المختلفة الرسمية منها وغير الرسمية، والتزامها الفصاحة.

2- الإحياء لا يتم إلا بالتخلص من اللحن وتطهير ألسنة الناس منه خاصتهم وعامتهم، كما كان عليه الأمر زمن النشأة الأولى، ويقصد بها عصور الفصاحة التي استقى البلاغيون منها قواعدهم، وأقاموا عليها صرح بلاغتهم، فالتجديد يتم عبر وظيفتين أساسيتين هما:الإحياء والإماتة، أو التخلية والتحلية، أو الهدم والبناء، إحياء العمل بقواعد البلاغة وتحلية الكلام بها، وبناء الفصاحة عليها، وإماتة اللحن ومحاربته، وتخلية الكلام منه، وكذلك تطهير البلاغة من رفاق السوء من العلوم الضارة كالمنطق والفلسفة والكلام.

وللأمانة العلمية فإن التعريف التي سبكته هو المعنى الأول لمصطلح التجديد والذي يؤمن به عامة المجددين، وعنهم يقول سلامة موسى:"وفي مصر مازالت طبقة من الكتاب حاولت ولازالت، تحاول استخدام اللغة العربية وسيلة من الوسائل الأدبية لاسترداد الأمس"[7]، ولكن هذا المصطلح تطور دلاليا متخذا شكلا توسعيا، حيث توسع معناه ليشمل دلالات أخرى سببها اختلاف وجهات النظر في تجديد البلاغة، وهذا سبب قوي من أسباب التغير الدلالي ومع ذلك لم أجد من أشار إليه صراحة من علماء الدلالة[8]. وهذه اتجاهات تجديد البلاغة التي يمكن استقراؤها من محاولات التجديد الكثيرة:

1- الاتجاه السلفي: وعليه ينطبق التعريف الذي سقته آنفا، وهو اتجاه بعثي إحيائي، إذ ينطلق من بلاغتنا العربية، التي ورثناها عن الجرجاني والسكاكي والقزويني ومن تبعهم، ويشترط أصحاب هذا الاتجاه في التجديد أن يكون ذاتيا، بمعنى أن يكون نابعا من روح المجتمع وثقافته، لصيقا بفطرته وذوقه، فمثلا يكاد يجمع البلاغيون أن ازدهار البلاغة كان على يد عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) وفي عصره، فيسعون جاهدين إلى تمثل منهجه الذي سنه في "دلائل الإعجاز"، ويكادون يجمعون أن السكاكي هو من دمغ البلاغة بالمنطق فيحاولون التخلص منه، أو الاجتهاد في استخراج مناهج العرب في صناعة الفصاحة قديما وتمثلها، وهكذا.

2- الاتجاه التوفيقي:ويسعي أصحابه إلى التلفيق والتوفيق بين البلاغة العربية القديمة، وبين الدراسات الغربية البلاغية الحديثة، قناعة منهم أنه من الخير الجمع بين ما يصلح من التراث البلاغي العربي، وبين ما يصلح من بلاغة الغرب، وأن التعايش الإيجابي بين القديم والحديث أكثر نتاجا وأقوى أثرا.

3- الاتجاه الانقلابي: وهو دعوة صريحة وجريئة لتجاوز القديم جملة واحدة، فالتجديد عند هؤلاء هو إلغاء الكتب البلاغية القديمة، واستبدالها بكتب جديدة تقوم على

مناهج حديثة، حالهم كمن يدعو أحدا إلى هدم بيته واعدا إياه ببيت جديد وجميل، وفي انتظار ذلك عليه أن يفترش الأرض ويلتحف السماء، وقد لا يحدث شيء من ذلك فيتحول إلى لاجئ بلاغي، لأني أعتقد أن أصحاب هذا الاتجاه يريدون استبدال البلاغة العربية بالبلاغة الغربية، ولكن بطريقة ذكية، فهم يعلمون أن من وسمهم سلامة موسى بالسلفيين الذين مابرحوا يؤلفون عن خالد بن الوليد وحسان بن ثابت[9]، سيقفون لهم بالمرصاد ويؤججون عليهم نيران غضب الشعوب البدائية، التي مازالت تمتهن الزراعة وتنفر من الصناعة والمدنية[10]، وهذا من التدرج والاحتيال على الرَّعاع الهَمَج في زعمهم[11].تلك أهم اتجاهات تجديد البلاغة في العصر الحديث، فأين نصنف الأخضري؟

هل الأخضري مجدد؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من الوقوف على مراحل تطور البلاغة العربية من النشأة إلى عهد الأخضري، ثم ننظر في أي المراحل هو؟ لقد مرت البلاغة بأربع مراحل وهي:

1-مرحلة النشأة: بدأت البلاغة على شكل ملاحظات يسيرة كان ينثرها الشعراء في مجامعهم، "فمن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات"[12]. ولسنا بحاجة إلى الاستطراد في بيان فصاحة العرب واعتزازهم بذلك، فهم أمراء الفصاحة وأرباب البلاغة، ولو لم يكونوا كذلك لكان تحدي الله لهم بمجاراة القرآن باطلا من التحدي –تعالى الله عن ذلك- لأن التحدي يكون فيما برز فيد المُتَحَدَى، لقد " بلغ العرب في عَقْدِ القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل، فإن كل ما وراءه كان أدوارا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطّرادها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه ... ثم كان لهم من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة... فقامت فيهم دولة الكلام

لكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن"[13]، وفي أحضانه نشأت البلاغة كممارسة وليس كعلم، واستمرت هذه المرحلة إلى أواخر القرن الثالث للهجرة.

2- مرحلة النمو: وتبدأ من نهاية القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الخامس للهجرة، ويطلق الدارسون على هذه المرحلة مرحلة الدراسات المنهجية، ويعد كتاب "البديع" لابن المعتز أول محاولة علمية منهجية جادة في مجال البلاغة[14]، وتداول على هذه المرحلة النقاد والأدباء، وكان لعلماء الإعجاز من أهل السنة والمعتزلة والأشاعرة إسهامهم المميز في تطوير علم البلاغة، وإمداده بالمصطلح[15].

3- مرحلة النضج: وتشمل أواخر القرن الرابع الهجري والقرن الخامس الهجري[16]، ويمثل هذه المرحلة عبد القاهر الجرجاني بكتابيه: "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، فالبلاغة " لم تكن قبله إلا أفكارا متناثرة، ونتفا متفرقة، ومعلومات متداخلة، ولكنه لم يكد يضع كتابيه الدلائل والأسرار حتى أزاح عن البلاغة ما كان يكتنفها من لبس وغموض"[17]. لقد ضمَّن علم المعاني الكتاب الأول، وعلم البيان الكتاب الثاني، وقد أثنى العلوي على صنيع الجرجاني فقال: "وأول من أسس هذا الفن وقواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده ورتب أفانينه، الشيخ العالم النحرير؛ عَلَم المحققين عبد القاهر الجرجاني"[18]. أما علم البديع فلم ينل حظه من الدراسة والبحث عند الجرجاني مع إشارته إلى بعض ألوانه، وجعلها في حيِّز النظم، وأشار إلى بعضها الآخر منفصلا عنه[19]. ولئن كان الجرجاني منظرا في كتابيه فإن الزمخشري (ت538هـ) كان مطبقا لتلك القواعد بطريقة فنية رائعة في تفسيره الكشاف.

4- مرحلة الاكتمال: وفيها اكتملت علوم البلاغة الثلاثة وتمايزت عن بعضها، ويمثل هذه المرحلة بحق أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ) بكتابه "مفتاح العلوم"، الذي جعله ثلاثة أجزاء وخص الثالث منها بعلمي المعاني والبيان، وألحق بهما نظرات في علم البديع، "لقد استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها من

آراء وما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار، وصاغ ذلك كله صيغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتسبيب، وفي التجريد والتحديد، والتعريف والتقسيم، والتفريع والتشعيب"[20].

5 - مرحلة التلخيصات والشروح:ثم جاءت مرحلة خامسة بعد السكاكي وهي مرحلة التلخيصات والمتون والشروح، ومن أعلامها القزويني (ت739هـ)،و الأخضري (983هـ)، وعلى الرغم من جعل كثير من النقاد هذه المرحلة والتي قبلها مرحلة واحدة، وأطلقوا عليها وصف الجمود والانحطاط، لأنها استقرت في المكان من المحيط إلى الخليج،واستمرت في الزمان من بعد السكاكي إلى يومنا هذا، فإني أراها مرحلة جديدة من مراحل تطور البلاغة وتجددها،تنفصل عن مرحلة الاكتمال، فهي بحق مرحلة من مراحل التجديد، نعم يحق لمن أراد من النقاد أن يصفها بالجمود والضعف، أو بالتجديد الغير موفق، لكن لايحق له أن يخلع عنها وصف التجديد،وقد ذكرنا آنفا أن من أنواع التجديد الانقلابي أو الهدام "، ولكنه تجديد، وعليه يحق لنا أن نصنف تجديد القزويني ومن بعده تجديد الأخضري في الاتجاه الأول من أنواع التجديد التي ذكرتها في مطلع البحث، وهو "الاتجاه الأصولي أو السلفي "؛ الذي يحرص على إحياء البلاغة وبعثها كما كانت أيام الازدهار والكمال.

القزويني مجدد:

لقد كان القزويني في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة،المعاني والبيان والبديع" مجددا، يقول في مقدمته:" هذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها، ترجمته بالإيضاح، وجعلته على ترتيب مختصري؛ الذي سميته "تلخيص المفتاح"، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر، مما تضمنه "مفتاح العلوم"، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما،

فاستخرجت زبدة ذلك كله وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري ولم أجده لغيري..."[21].

فانظر كيف جمع أعمالا شتى وهي من التجديد؛ فالاختصار تجديد، والشرح تجديد، والترتيب والتهذيب تجديد، وتوضيح المشكل تجديد، وجمع ما تفرق أبوابه ومباحثه تجديد، وإضافة ما انقدح في الذهنمن أفكار أسمى مراتب التجديد، وأرجى مقاصد التأليف، التي حصرها وعدّها علماؤنا المتقدمونفجعلوها سبعة:

أولها:استنباطالعلم بموضوعه، وتفريع أبوابه وفصوله ومباحثه، أو استنباط مسائل تُعرض للعالم المحقق، فيحرص على إيصاله لغيره لتعم الفائدة ،فيودع ذلك في مؤلَّف ليظهر القاصي والمتأخر على تلك الفائدة، وقد استنبط الشافعي رحمه الله علم أصول الفقه، فأودعه في كتابه "الرسالة".

ثانيها: يقف الباحث على كلام الأولين ومؤلفاتهم فيُلفيها مستغلقة على الإفهام، ويفتح الله عليه في فهمها واستيعابها، فيحرص على تبليغ ذلك لغيره، وهذا هو صنيع المتأخرين في كتب المتقدمين، وكذلك يفعل المحققون المحدثون في كتب المتقدمين.

ثالثها: أن يقف المتأخر على غلط بيِّن في كلام ممن اشتهر من المتقدمين، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذرت المناصحة، وانتشر ذلك في الآفاق لشهرة من صدر منه الغلط، وهذا كثير.

رابعها:أن يكون الفن الواحد قد نقصت بعض مباحثه فيطَّلع المتأخر على ذلك، ويفتح الله عليه بإتمام ما نقص،ومن ذلك مثلا استدراك الأخفش على الخليل في علم العروض لبحر المتدارك، وهو البحر السادس عشر من بحور الشعر.

خامسها: أن تقع مسائل العلم غير مرتبة ولا منتظمة في أبوابها، فيعمد المؤلف إلى ترتيبها وتهذيبها، ويجعل كل مسألة في بابها، وهذا صنيع كثير من المتأخرين مع كتب المتقدمين،

من ذلك مثلا كتاب سيبويه في النحو حيث قام من جاء بعده بترتيب وتنظيم أبوابه ومسائلها ،كابن هشام وابن مالك وغيرهما.

سادسها: أن تقع مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى، فينتبه بعض الفضلاء لموضوع ذلك العلم كما وقع في علم البيان، فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مُمزّعة في كتب النحو، وقد جمع منها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين مسائل كثيرة، تفطن الناس فيها لموضوع ذلك العلم، وتميُّزِه عن سائر العلوم، فألفوا في ذلك تآليفهم الشهيرة، التي صارت أصولا لعلم البيان[22].

سابعها: أن يكون الواحد من المؤلفات مطولا مسهبا، فيعمد أحد العلماء إلى تلخيصه واختصاره، بحذف المكرر، حتى ينتفع به صغار طلبة العلم، ومن لا صبر له على مقارعة المطولات واستطراداتها[23].

وإذا أنعمنا النظر في صنيع القزويني ألفيناه قد جمع مقاصد التأليف الذي ذكرها ابن خلدون كلها فكيف لا يكون عمله هذا تجديدا؟

ومع أننا لا نوافق ابن خلدون على حصرة لمقاصد التأليف وإلغاء ما سواها، مقتفيا في ذلك مذهب أرسطو "لما عدّد هذه المقاصد وانتهى إلى آخرها فقال:وما سوى ذلك ففصل أو شره، يعني بذلك الجهل والقّحة"[24]، وعذره في ذلك في تقديرنا أمران: التقليد لأرسطو، والنظر في واقع عصره، وما درى أن تكوثر العلوم مع تكوثر الزمان يفضي إلى تكوثر المقاصد[25].

إن الفهم القاصر لمقاصد التأليف وعلاقتها بالجديد جعل كثيرا من الأساتيذ ينكرون على طلبتهم الذين يشرفون عليهم صنيعهم في تآليفهم بجميع مستوياتها، من اللسانس إلى الماستر فالدكتوراه، متسائلين في إنكار وأين التجديد؟وما دروا أن مقاصد التأليف مراتب

أعلاها استنباط علم جديد أو مسألة جديدة، وأدناها الجمع والترتيب، وكل ذلك من الجديد، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

الأخضري مجدد:

أما الأخضري فهو أولى بالتجديد من الخطيب القزويني لأمرين اثنين هما:

أولا: أنه مغربي وليس مشرقيا،وقد اعتاد الناس ألا يؤلف في هذا الفن إلا أهل المشرق، فهم أرباب هذا العلم وصناعة وشّراحه، وما على المغاربة ذوي الأصول البربرية الأعجمية سوى النّهل من مناهلهم، وقد كان "تلخيص المفتاح" للقزويني منهلهم قبل الجوهر المكنون، فعمد الأخضري إلى تهذيبه ونظمه، ثم كّر عليه شارحا ومبينا، في مؤلف ترجمة ب"شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون"[26]،"فاق فيه الأخضري تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني"[27] حسب رأي أبي القاسم سعد الله رحمه الله.

ثانيا: أن الأخضري عاصر فترتي الجزائر العثمانية الأولى والثانية، وتسمى الأولى فترة الفتح التركي، وتمتد من سنة 918هـ إلى 950هـ (1512م إلى 1544م)، وتسمى الثانية فترة "البيلربيات"، امتدت من سنة 950هـ إلى سنة 995هـ (1544م إلى 1587م)[28]، ومعلوم أن الظروف التي مرت بها الجزائر خاصة في فترة الفتح التركي لا تسمح بنمو وتطور الحياة العلمية لعدم توفر البيئة المواتية والزمان الهادئ[29]، فلم يكن للأتراك هم ثقافي علمي مثلما كان في ميدان الحرب والسياسة، ولو كان لهم هّم لكان منصبا على الثقافة التركية لا العربية، ومع ذلك استطاع الأخضري أن يكسر هذا الفتور وينظم الجوهر المكنون عام 950 للهجرة، ثم بدأ بالشرح المفصل للّتو لينتهي منه عام 952هـ[30]، ويصير بذلك من أهم مصادر الدرس البلاغي في الجزائر طيلة الفترتين العثمانية والاستدمارية الفرنسية؛ نافذا إلى عصرنا وجامعاتنا، أفلا يكون ذلك من ثمرة التجديد وأمارته، وقد تجاوز الجوهر المكنون حدود الجزائر إلى المغرب الكبير يقول الورثيلاني (ت119"هـ) في رحلته مشيدا بهذا الكتاب: "وله الجوهر المكنون في

البيان يلخص فيه التلخيص، وقد أقبل عليه الناس في مغربنا"[31]، بل تجاوز أيضا حدود المغرب العربي إلى مشرقه فأقبل المشارقة عليه قراءة وحفظا وشرحا، وكان من أشهر من تصدى لمتن الجوهر المكنون بالشرح أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (ت1192)؛ في كتابه "حلية اللب المصون على شرح الجوهر المكنون" ومما قاله في مقدمة هذا الشرح "هذا بيان للرسالة الموسومة بـ"الجوهر المكنون" في علم البيان للعارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن الأخضري رحمه الله تعالى"[32]، ويكفيه شرفا وشهرة أن صار من مقرَّرات أشهر منارات العلم في العالم الإسلامي، وهي جوامع الأزهر الشريف، والزيتونة، والقرويين.

بين القزويني والأخضري:

عقدت هذا العنوان وهو عبارة عن مقارنة عجلى بين صنيعي الرجلين في كتابيهما البلاغيين لتستبين إضافات الأخضري على القزويني، فالقزويني ألف مختصره "تلخيص المفتاح" ثم أتبعه بالإيضاح، وهو شرح مفصل للمختصر وقد نقلنا في عنوان سابق قولا له يبين فيه مقاصد تأليفه، وشرحناه شرحا يعفينا من التكرار.

ثم جاء الأخضري في القرن العاشر فوجد الهِمم منصرفة إلى الإيضاح في علوم البلاغة، ومعه التلخيص، فهذَّب الأخير وجعله نظما وسمّاه "الجوهر المكنون في الثلاثة فنون[33]، وحذف منه الخلافات البيانية وآراء العلماء فيها، مكتفيا بذكر الراجح منها، وبالرجوع إلى سبب تأليف هذا النظم أدركنا أن الغرض منه تعليمي بيداغوجي، وقد صرح الأخضري بذلك في البيتين الثامن عشر والتاسع عشر بقوله:

وقد دعا بعضٌ من الطلابِ لرجْزٍ يهدي إلى الصوابِ

فجئته برجزٍ مفيدٍ مهذبٍ منقّحٍ سديدِ[34]

"وكل من وقف على تأليفه وأسلوبه في نظمه ونثره علم أن الرجل كان متضلعا من العلم وأنه(ذو) خبرة تامة بفن التعليم بيداغوجي"[35].

فصنيع الأخضري في كتابيه يندرج في إطار الجهود الرامية إلى تيسير البلاغة حفظا عن طريق النظم،وفهما عن طريق الشرح المشذَّب المهذَّب؛ الذي تراعى فيه قدرات الناشئة من طلبة العلم، والمتأمل لمصطلح التيسير يجده صنو التجديد عند من كتب في محاولات تجديد العلوم العربية وعلى رأسها النحو والبلاغة[36]، وإن كنت لا أقاسم الرأي من جعلهما من قبيل المترادف لأن المعنيين اللغوي والاصطلاحي يأبيان ذلك، فإني قد اهتديت إلى رأي قريب منه، وهو أن إطلاق التيسير على التجديد من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية، وإطلاق التجديد على التيسير من باب المجاز المرسل أيضا الذي علاقته المسبَبِيَّة، فالتيسير سبب ووسيلة إلى التجديد، كما أن التجديد نتيجة وثمرة للتيسير، وقد يفقد المجاز مجازيته ويكتسب الحقيقة نتيجة الألفة المترتبة عن كثرة التردد حسب رأي علماء الدلالة[37].

ومن عمل الأخضري في نظمه للتلخيص استبدال الأمثلة القزوينية بأمثلة حبلي بالمصطلحات الصوفية، كالتصوف، والحضرة، والمشاهدة والتجلي، والمناجاة، والمراقبة وغيرها[38].ومن أمثلة ذلك قوله: الباب الأول: الإسناد الخبري في البيتين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين:

وربَّما أُجْرِيَ مُجْرَى الجاهلِ مُخاطبٌ إن كان غيرَ عاملِ

كقولنا لعالمٍ ذي غفلةٍ الذكرُ مفتاحٌ لبابِ الحَضرةِ

وقوله : أيضا في الباب الثاني: في المسند إليه البيت الثامن والخمسين:

كحبَّذَا طريقهُ الصوفيةِ تَهْدِي إلى المَرتبةِ العلـيَّة

وقوله في البيت الثاني والثمانين:

وفضْلُه يفيدُقصرَ المسْنَدِ عليه كالصوفي وهو المهتدي[39].

وغيرها من الأمثلة الكثيرة المبثوثة في ثنايا نظم الجوهر المكنون.

ولم تقف إضافات الأخضري عند حدود الاختصار والنظم والشرح والتمثيل، بل تجاوز ذلك إلى اجتهادات في بعض مسائل علوم البلاغة الثلاث من معان وبيان وبديع،

أفضت إلى إضافات في كلٍّ منها "فإذا كان القزويني يعد التدبيج من المطابقة فالأخضري يفصل بينهما، وإن كان القزويني يجعل "الاهتمام" جنسا لأغراض التقديم كلها، فالأخضري يفرق بين هذه الأغراض، وغرض الاهتمام عنده ما هو إلا غرض كبقية الأغراض، كما خالفه في الترتيب بين المجاز المركب والاستعارتين التخييلية والمكنية، فهما مُقَدَّمتين على المجاز المركب عند القزويني بينما الأخضري أخَّر المجاز المركب عليهما بما يراه مناسبا"[40].

وقد استعان بعلم المنطق في عرضه لكثير من المسائل البلاغية، فكان عمله هذا قيمة مضافة في جهود تيسير البلاغة ومن ثَمَّ إحياؤها وتجديدها في بلد توالت عليه الانتدابات والاعتداءات، ومن ورائهما الثقافات بإغراءاتها وإكراهاتها، أفلا يكون مجددا من انتدب لتيسير البلاغة العربية لأبنائها وحمايتهم من إهمال الأتراك وهمجية الفرنسيين؟

خاتمة:

- تندرج جهود عبد الرحمن الأخضري ضمن الجهود التيسيرية للدرس البلاغي، وتُصَنَّفُ ضمن الاتجاه السلفي الأصولي الذي يهدف إلى إحياء البلاغة عن طريق التعليم المتدرج الذي يراعي قدرات الطلبة، وذلك بتهذيب وتشذيب المطولات واختصارها ونظمها وشرحها، وكذلك فعل القزويني مع كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، وقد اقتفى الأخضري صنيعه، ولكن ذلك لا يعني بحال التقليد الأعمى والتماهي التام .

- موسوعية عبد الرحمن الأخضري وجمعه بين العلوم الدينية والعربية، وخبرته التربوية مكنتة من عرض المسائل البلاغية عرضا شائقا فاق فيه القزويني.

- ليس من العدل والإنصاف أن نجعل كل من ألَّف في البلاغة بعد السكاكي(ومنهم القزويني والأخضري) تبعا له في المرحلة، ونحكم عليه بالتقليد الأعمى، وليس من العدل والإنصاف أيضا أن نجعل الأخضري مقلدا للقزويني؛ خاصة وقد كان في بيئة تمر فيها اللغة العربية بظروف حرجة كما هو حالها في الجزائر خصوصا، والمغرب العربي عموما.

- كل من ألف كتابا لمقصد من مقاصد التأليف التي ذكرها القدماء والمحدثون فهو مجدد، والتجديد درجات كما أن مقاصد التأليف درجات، ولا أظن أن الأخضري قد خرج عنها بل جمع كثيرا منها.

- للتجديد اتجاهات مختلفة ومتناقضة أحيانا فلا يجوز للناقد أن يغفلها فيبخس المجتهدين المجددين إضافاتهم واجتهاداتهم، وخاصة إذا كانت الدراسة مقارنة كهذه.

الهوامش:

[1] لسان العرب: ابن منظور الإفريقي، دار المعارف، مادة (ج د د)، ص563-564.

[2] مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين ميلة، الجزائر، الطبعة الرابعة، 1990م، ص.70

[3] سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق: ناصر الدين الألباني، واعتناء : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، 1424هـ، ص768.

[4] التجديد في الفكر الإسلامي: عدنان محمد أمامه، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1424هـ، ص17.

[5] المرجع نفسه، ص17

[6] التجديد في الفكر الإسلامي: عدنان محمد أمامه: ، ص18.

[7] البلاغة العصرية واللغة العربية: سلامة موسى، سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة المزيدة، 1953م، 1964،ص7.

[8] ينظر:علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009م، ص138.

[9] البلاغة العصرية واللغة العربية: سلامة موسى، ص.10

[10] الرجل مهوس بالصناعة ساخط على الزراعة، وما علم أن هم الشعوب في أيامنا هو تأمين لقمة العيش، ينظر: البلاغة العصرية واللغة العربية: سلامة موسى ، ص 08.

[11] ينظر:التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث: منير محمد خليل ندا، رسالة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، الدراسات العليا العربية، فرع الأدب، ص63.

[12] البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، 1983م، ص.10

[13] إعجاز البلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 2005م، ص109-.110

[14] ينظر: كتاب البديع: ابن المعتز، اعتناء وتعليق: إغناطيوسكراتِشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1982م، ص.1

[15] ينظر: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2000م، الجزء الثاني، ص.54

[16] ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص.160

[17] المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز البلاغي:أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، د-ط،1990م، ص .04

[18]الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الإعجاز: يحي بن حمزة العلوي، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995م، ص.04

[19]ينظر: المباحث البلاغية في ضوء الإعجاز القرآني: أحمد جمال العمري، ص.250

[20]البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص.288

[21]الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع: الخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003م، ص.06

[22]يقصد بالبيان هنا علم البلاغة بعلومه الثلاثة(المعاني والبيان والبديع)،وليس البيان الذي هو أحد علومها.

[23]ينظر: مقدمة ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004م، ص603-.604

[24]المرجع نفسه، ص.604

[25]ينظر: منهاج البحث اللغوي: عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم، مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1989م، ص.85

[26]ينظر: شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، تحقيق وتعليق ودراسة:بقدّار الطاهر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير (مخطوط) إشراف: مختار بوعناني، جامعة وهران، الجزائر، 2004م، صب،هـ.

[27]تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د-ط، 1985م، ج2، ص.173

[28]ينظر: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي: محمد خير فارس، مكتبة الشروق، لبنان، بيروت، د-ط، د-ت، ص.24

[29]ينظر: تاريخ المغرب الكبير: رشيد الناضوري، دار النهضة للطباعة والنشر، 1981م، ج1، ص.49

[30]ينظر: شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري: بقدّار الطاهر، ص.47

[31]نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "الرحلة الورثيلانية: الحسين بن أحمد الورثيلاني، تصحيح: محمد بن شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، د-ط، 1908م، ص.87

[32]حلية اللب المصون على الجوهر المكنون: أحمد الدمنهوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د-ط، د-ت، ص.02

[33]ينظر: المجموع الكامل للمتون: محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005م، ص.558

[34]المرجع نفسه، ص.559

[35]تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، 1983م، ج3، ص.80

[36]ينظر: الخلاف النحوي في ضوء محاولات التيسير الحديثة: حسن منديل العكيلي، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د-ت، 2006م، ص88-.89

[37]ينظر: علم الدلالة: أحمد مختار عمر، عالم الكتاب، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1998م، ص.242

[38]شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري: بقدار الطاهر، ص.52

[39]ينظر: المجموع الكامل للمتون، محمد خالد العطار، ص59-.61

[40]شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري: بقدار الطاهر، ص55-56.